

## سورة البروج

هذه السورة العظيمة، سورة ذات موضوع واحد، ولها مقاصد عظيمة، يمكن أن نجملها

بثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: بيان منزلة المؤمنين عند ربهم.

المقصد الثاني: الأثر الذي يحدثه الإيمان في العلاقات بين البشر.

المقصد الثالث: تمجيد الرب نفسه، وحكمته في قدره، وشرعه.

[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ  
الْقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُجُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ]

[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾]: السماء هي هذا البناء المحكم العلوي، الذي فوقنا. وهي السقف

المرفوع: [وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ] {الأنبياء: ٣٢} ، وما نبصر منها إنما هو السماء

الدنيا، سميت بذلك لدنوها من الأرض. وصف الله هذه السماء بأنها [ذَاتِ الْبُرُوجِ] قيل: إنها

النجوم والكواكب، وقيل: إنها القصور السماوية، التي تنزل فيها النجوم، والكواكب كما

قال الله ﷻ: [نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾]

{الفرقان: ٦١} . وأصل هذه الكلمة البروج مأخوذ من البروز، والظهور. ولهذا سميت

القلعة، برجاً، لبروزها وظهورها. ومنه قولهم: تبرجت المرأة، إذا برزت للناس وأظهرت

محاسنها. فمن قال إنها القصور، نظر إلى قول الله تعالى [وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ] {النساء: ٧٨}،

بل إن بعضهم قال: إن في السماء قصوراً تأوي إليها الملائكة. ولكن لا دليل عليه يؤثر

فيعتمد عليه. والأقرب، والله أعلم، أن المقصود بالبروج المنازل التي تنزل فيها الكواكب،

والأجرام السماوية، وعدتها اثنا عشر برجاً، وهي التي تسميها العرب: الحمل، والثور،

والسنبله، والجدى، والميزان، والعذراء، وهكذا. وقد كانوا يدركون من الأفلاك سبعة، أو

سنة، ويجعلون كل نجم، أو كوكب يختص بشيء من هذه الأبراج.

وهذا قسم عظيم، لأن هذا الخلق الهائل، لا يدرك مداه إلا الله، ولهذا قال ربنا في آية أخرى

**﴿ فَلا أَقْسَمُ بِمَوْجِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾** {الواقعة: ٧٥-٧٦}

فمواقع النجوم هي هذه البروج التي تنزل فيها النجوم في أوقات مقدرة.

**﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ ﴾**: لا أعلم فيه خلافاً أن المراد به يوم القيامة؛ لأنه يوم وعد الله فيه العباد،

أو أوعده به العباد لجمعهم فيه .

**﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾**: (شاهد): قيل إنه يوم الجمعة، (ومشهود): قيل يوم عرفة، فيوم

الجمعة شاهد لأنه يشهد لمن حضرها، والمشهود يوم عرفة لأن الناس تشهده. ولكن هذا

تفسير للشيء ببعض أنواعه، واللفظ أعم. فإن يوم الجمعة يصلح أن يكون شاهداً

ومشهوداً؛ فهو شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره، كما أن يوم عرفة أيضاً شاهد لمن

حضره، ومشهود ممن حضره. فالراجح ما ذهب إليه ابن القيم<sup>(١)</sup> أن الشاهد، والمشهود، أي

المُدْرِكُ والمُدْرَكُ، والعالم، والمعلوم، والرائي، والمرئي. فكل ما دل عليه اسم الفاعل، وما دل

عليه اسم المفعول، يدخل فيه .

**﴿ قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾**: قيل إن هذا هو جواب القسم. يعني قد قتل أصحاب الأخدود.

وقيل إن جواب القسم (لتبعثن). والأقرب أن تكون على الظاهر، دون المضمرة، فقد قال الله

**﴿ قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ ﴾**. ليس هذا القسم لإثبات هذه الحادثة وحسب، فإنها تثبت بمجرد

خبر الله ﷻ، وإنما لتفخيمها، وتعظيمها، فإن هذه الحادثة، حادثة عظيمة جداً، جرت في

زمن متقدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى هدى بعض الناس، في بلاد اليمن، فأمنوا بالله،

قيل إنهم كانوا من النصارى الموحدين، ثم إن ملك زمانهم، والملا من قومهم، نقموا عليهم

نقمة شديدة، وأرادوا حملهم على الرجوع إلى دينهم، فأبوا، واعتصموا بالله عز وجل، فما

كان من قومهم إلا أن خدُّوا لهم الأخاديد في الطرقات، والأخدود هو الشق في الأرض،

وأضرموا فيها النار، ثم عرضوهم على النار، وهم قعود على كراسيهم، يتفكحون، ويقولون

<sup>(١)</sup> زاد المعاد (١/٣٩٨).

لأحدهم: إما أن ترجع إلى دينك، ودين أبائك، وأجدادك، وإلا قذفناك فيها. وثبت الله المؤمنين بالقول الثابت، فصاروا يلقونهم في النار، ويستمتعون بمرآهم، وهم يحترقون، ويشمون رائحة شوائهم، ولا يبألون. قيل إن الله تعالى، كان يقبض أرواح المؤمنين، قبل أن يهوا في النار، فلا يجدون حرها. وهذه الحادثة موافقة لما قص النبي ﷺ، من قصة الغلام المؤمن<sup>(١)</sup>.

فخلد الله ذكر هذه الحادثة في كتابه، قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، فيه أسوة، وعبرة لكل المؤمنين، على مر الأزمان، إذا لقوا من أهل الكفر والطغيان أذىً، وفتنة، تذكروا ما جرى لإخوانهم الذين حرقوا في الأخاديد، فأثنى الله عليهم، وزكاهم، ووعدهم، وتوعد مخالفيهم، وعاقبهم العقاب الدنيوي، قبل العقاب الأخروي. ولهذا دعا عليهم، فقال (قتل) يعني لعن.

**[النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ٥]**: هذا بدل اشتعال؛ لأن الذي في الأخدود نار تضطرم، فيها الوقود الذي أوقدت به من الحطب وغيره.

**[إِذْ هُرِّعَتْهَا فَعُودٌ ٦]**: يعني أنهم استحقوا اللعنة، والقتل، أشد ما يكون، حال كونهم قعوداً، شاهدين، حاضرين، يتفكّهون، ويتلذذون بمرأى المؤمنين وهم يعذبون، ويحترقون. فلهذا أشد غضب الله عليهم، ونكاله، وبغضه لهم في هذه الدنيا، فوق ما يأتيهم في الآخرة.

**[وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧]**: يعني حالهم أنهم شهود، حضور، شاهدون على أنفسهم، ما فعلوه مكرهين، مضطرين، بل بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم، ليقفوا هذا الموقف.

---

<sup>(١)</sup> التي وردت في الصحيح، حتى إن النبي ﷺ حدث ببعض تفاصيلها فقال "... جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْعَلَامُ يَا أُمَّهُ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ" رواه مسلم (٣٠٠٥). فألقت بنفسها وولدها في النار.

**[وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)]:** يعني ما نقم هؤلاء الكفار من المؤمنين،

وما أنكروا عليهم شيئاً، من خلق، ولا من سلوك، ولا غيرهما، **[إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ**

**الْحَمِيدِ]!** فلما آمن هؤلاء الموفقون، نقم الملائ عليهم، وغازظهم ذلك، مع إنهم ما تعرضوا لهم،

ولا أخذوا ما لهم، ولا ضربوا أبشارهم. لكنه الحقد الدفين في قلب الكافر على المؤمن. فبين

المؤمن والكافر نفرة شديدة؛ فلا يتواءمان، ولا يتساكنان، ولا يجتمعان. فالإيمان والكفر

ندان، نقيضان .

فكل صاحب حق، فارق صاحب باطل، فإن صاحب الباطل يجد في نفسه من التغيظ عليه،

والنفرة منه، ما يحمله على أذيته. تجد الإنسان يكون بين طائفة من الغافلين، ثم يلقي الله

تعالى في قلبه الإيمان، ويستقيم على الدين، فيتعرض للأذى الحسي، والأذى المعنوي،

فينبذونه بالألقاب، ويؤذونه؛ لأنهم يرون أنه تميز عليهم، وارتقى عتبة، ودرجة في السلم،

وهم بعد لا يزالون في الحضيض. كذلك المبتدعة مع أهل السنة، حينما يدع الإنسان البدعة،

ويلزم السنة، ويقول: لا أعبد الله إلا بما شرع على لسان نبيه ﷺ، ينبذونه بالألقاب السيئة،

يريدون أن يردوه إلى حاله. فلهؤلاء سهم، وكفل، من هذه الصفة، فبين أصحاب

الأخدود، وبين المبتدعة والفساق، قدر مشترك في هذا الأمر، لمن تأمل وقد نبه على هذا

المعنى اللطيف، ابن القيم، رحمه الله (٣).

**[الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ]** ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى تنبيه بليغ على أن

الله سبحانه وتعالى عزيز، أي قوي، غالب، منيع الجناح، فله عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة

المنعة. فلا يظن ظان أن الله خذل أوليائه، بل هو سبحانه عزيز الجناح، لكن له حكمة

(٣) إغائة اللهفان (٦٧/١) قال ابن القيم رحمه الله: وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه

بالإشراك. وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بأراء الرجال، ولا بشيء مما

خالفها، فصر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك، والبدعة خير له، وأنفع وأسهل عليه من

صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لم يكن يد من الصبر فاصطبر ... على الحق ذاك الصبر تحمد عقباه .

بالغة، فإن الآثار المترتبة على هذا الحدث العظيم إلى يوم القيامة، إن تعد لا تحصى. ففيها من العبر، والدروس الإيمانية، ما ينهل منها أهل الإيمان إلى قيام الساعة. وهو سبحانه (حميد) : أي أنه محمود، ففعيل بمعنى محمود، في ذاته، وشرعه، وقدره، وما يجريه. فلم يكن ذلك منه عن غفلة، حاشاه، بل هو لحكمة بالغة.

**[الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾]** : أي أن إيمان هؤلاء القوم بالله ﷻ، كان إيماناً عميقاً، مبنياً على دلائل الربوبية، لم يكن إيمانهم إيماناً تقليدياً، أو لمجاراة، أو لطلب ممدحة من الناس، كلا ! بل هو إيمان عميق، راسخ، يستمد مادته من دلائل الربوبية، **[الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]** فمن له ملك السموات والأرض، جدير بأن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد سواه. وقد كان ملك زمانهم يأمرهم بعبادة نفسه.

ولهذا احرص يارعاك الله، أن تجعل إيمانك مربوطاً بأشياء ثابتة، لا يكون إيمانك إيماناً سطحياً، عاطفياً، يتعلق بحالة آنية، أو حادثة معينة. اجعل إيمانك مرتبطاً بالثوابت الكونية، بأن الله خالق الأرض والسماء، وتأمل ما قال أصحاب الكهف: **[إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]** {الكهف: ١٤}، فارفع رأسك إلى قبة السماء! وانظر إلى فجاج الأرض. فليكن تشبثك بدلائل الربوبية الثابتة قوياً، ولهذا ينتكس بعض من يوصف بأنه استقام، والتزم، وصلح، لأنه استقام استقامة ظاهرية، وتأثر تأثيراً آنياً، إثر موقف عاطفي، أو هيجان طارئ، ثم لما زال المؤثر زال الأثر.

**[وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾]** يعني أن الله سبحانه وتعالى، شاهد، مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فما جرى لهم، لا لهوانهم على الله ﷻ، ولكن لما أعد الله لهم من الكرامة، والفضل، والرفعة في الدنيا والآخرة، وتأمل المقابلة بين وصفه لهم بأنهم **[عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ]** وو صفه لنفسه بأنه **[عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ]** ! يتبين لك مدى طغيانهم وحقمهم، ومدى حلمه وعلمه وحكمته سبحانه .

## الفوائد المستنبطة:

**الفائدة الأولى:** إقسام الله بآياته الكونية، [وَأَلْسَمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ]، والشرعية [وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ] يوم

عرفة، ويوم الجمعة فهذه مما شرعه الله تعالى.

**الفائدة الثانية:** تعظيم حادثة الأخدود، وعدم غفلة الرب عما جرى للمؤمنين.

**الفائدة الثالثة:** شدة عداوة الكافرين للمؤمنين، وغلظتهم عليهم، كما قال ربنا ﷻ: [لَا

يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَاذِمَةً] {التوبة: ١٠} وهذه سمة باقية إلى يوم القيامة.

**الفائدة الرابعة:** نفرة الكافرين من تميز المؤمنين عليهم، ومفارقتهم إياهم بالإيمان. ويتفرع

عن هذه الفائدة: نفرة العصاة من أهل الطاعة، ونفرة المبتدعة من أهل السنة.

**الفائدة الخامسة:** عمق إيمان المؤمنين، وارتباطه بدلائل الربوبية.